الخوف من المقاومة

منَ الخوف على المقاومة، انتقل بعضُنا إلى الحديث عن الخوف . . . من المقاومة.

العمى!

صارت المقاومةُ في الفلوجة والرمادي وبغداد «تَهْدف إلى إعادة النظام المخلوع،» كما بات بعضُنا يقول، لا إلى تحرير العراق من الاحتلال. وكلُّ شيء، طبعًا، إلاّ النظام المخلوع، والعياذُ باللّه! فالأميركان، على نحوِ ما أصبح بعضُنا يقول باسترخاء، ليسوا عُظماء ولكنّهم مع ذلك أفضلُ بمليون مرة من مقابر صدّام الجماعية وسَمْلِ العيون وبَقْرِ البطون. نُحبّ أن نتناسى أنّ الأميركان سَبَقَ أن دَعَموا النظام العراقيّ في كلّ محطّات عنفوانه «القوميّ» (إيران، الكويت، . . .)، ونقول بالاسترخاء ذاته: «فلنُعْطِهم فرصةً، ولا نَتَسبَّبن في عودة صدّام.»

ولكنْ من قال إنّ المقاومة العراقية ستعيد الرئيسَ السابق، حتى لو كان هو اليوم جزءًا أساسيًا منها؟ بل لنفترضْ أنّه هو القائم بكلّ أعمالها (إنْ صحّ افتراضُنا كان ذلك أشرفَ أعماله)، فمن يَضْمن أنّه سيبقى هو المهيمنَ عليها إلى الأبد، وبخاصةٍ بعد ما أُشيع عن مقتل ابنيْه في الموصل؟ ألم تبدأ المقاومةُ الوطنية اللبنانية ضدّ الاحتلال الإسرائيليّ بفصائل علمانيةٍ ويساريةٍ ثم انتهت إسلاميةً (لأسبابٍ ذاتيةٍ وموضوعيةٍ لا مجال لذكرها)، في حين يتحوّل بعضُ «يسار» العراق و«علمانيّيه» إلى أذنابٍ لمجلس الحكم العميل هناك؟ أليس الانخراطُ في المقاومة العراقية المسلّحة هو الضمانَ بأن لا «تبقى» صدّاميةً أو «سُنّية» بل أن تصبح تيارًا وطنيًا عراقيًا عارمًا؟

ومن جهة ثانية، ألا يؤدّي التخويفُ من المقاومة إلى ترسيخ أقدام الاحتلال، مع أنّ هذا الاحتلال أَكْمَلَ تحويلَ العراق إلى أرضِ خرابٍ لا ماء فيها ولا كهرباء ولا وظائف ولا جيش . . . بل يحاول أن يَنتزع الهوية منها أيضًا. «هويّة؟» يقول بعضُنا هازئًا، «كلّ شيء إلاّ الهوية؛ فهي التي أوصلتنا إلى هنا.» ومع ذلك لا بأس إنْ أَسْهَبَ بعضُنا في الحديث عن مصير الأكراد والتركمان والأشوريين والكلدان . . . أما العروبة فسُبحان مَنْ خَلّصنا منها!

بعضُنا يصرّ أيضًا على أنْ لا مكان اليوم للحديث إلاّ عن مقابر صدّام الجماعية. ولكنّهم يَسْكتون عن مقابر الأميركان الجماعية (عاصفة ١٩٩١، والحصار الذي أَوْدى بأكثر من مليون عراقيّ طوال اثنيْ عشر عامًا ونصف العام، والعشرة آلاف مدنيّ الذين قَضَوْا في الحرب الأخيرة، . . .) وكأنْ لا تعريف للمقبرة الجماعية إلاّ أنّها جورةٌ كبيرة في الأرض يُوضَع فيها الأمواتُ. ليس هذا فحسب، بل أخذ بعضُنا يتحدّث عن «فرادة» القمع الصدّاميّ و«استثنائيته» على نحوٍ يُذكّر ــ ويا للأسف ــ بأرباب صناعة الهولوكوست (كما يسمّيهم نورمان فنكلستين) الذين نَظّروا لفرادة المحارق النازية بحقّ اليهود. الأخطر من ذلك أنّ أرباب صناعة الهولوكوست العرب يَسْتخدمون المقابرَ الصدّاميةَ (التي علينا أن نَعْترف بأنْ ليس ثمة ما يدعونا إلى الشكّ في وجودها وفي ضخامتها) كما استَخْدَمَ الصهاينةُ وأتباعُهم المحارقَ النازية: هراوةً في وجه المقاومة العراقية والفلسطينية ضدّ النازيين الجدد (أميركيين وصهاينة)، وكأنّ المقاومة ليست امتدادًا لصدّام وحده بل أيضًا للأبالسة الأوائل ــ وعلى رأسهم هتلر. وبات الأميركيون الجُدد محرِّري العراق، كما حرّروا أوروبا من النازية والشيوعية قبل عقود.

أما في فلسطين، فمَلأَتْ الصحفَ والفضائيات بالحديث عن أنّ المقاومة «الانتحارية» تكرّس ثقافةَ العنف، وتكرّس الجريمةَ في المجتمع الفلسطينيّ، وتكرّس «حماس» و«الجهاد،» وتكرّس الحلَّ الشارونيّ للترانسفير. لذا فإنّ الحكمة، كما رُحْنا نقول والسيجارةُ متدلّيةٌ من بين شفاهنا المرخيّة، تقضي بإنهاء «عسكرة» الانتفاضة، وتسليمِ سلاح المقاومة، وقبولِ الهدنة مع إسرائيل، و . . . التخلّي عن حقّ العودة (ألم يبيّنْ مركز خليل الشقاقي، وبالأرقامِ «الدقيقة» والإحصائيات «الموثّقة،» أنّ أكثر الفلسطينيين لا يريدون العودة؟). والبديل؟ نَأْخذ شفطةً ونذبّل عيونَنا ثم نقول: زرعُ الثقافة المدنية في النفوس بديلاً من «ثقافة» الموت والانتحار المجّانيّ، والتركيزُ على الإعلام لأنّ معركة العصر (لاحظوا أنّنا لم نَتْرك المعركة!) هي في ساحة الإعلام لا على الخيول في الفيافي والفلوات. (التتمة ص ١٢٠)

سماح إدريس
بيروت

تتـــمـــة الافـــتـــتـــاحـــيـــة ص ١

الخـــوف من المقـــاومـــة

إذنْ، لم تقتصرْ موجةُ تشويه المقاومة (بهدف الحفاظ على المجتمع!) على وسائل الإعلام الأميركية السائدة، وإنّما تعدّتها إلى منابرنا وأحزابنا... بل وشفاهنا أيضًا. فصرنا نَخنق فرحتَنا وشهقتَنا حين نَسْمع بمقتل جنودٍ أميركيين في العراق أو إسرائيليين في فلسطين، وبتنا نجد أنفسَنا نصيحُ رغمًا عنّا: «لاهْ، لاهْ، لاهْ. يا لطيف تلطَّفْ. اللّه يسْتر شو رَحْ يصير!» وكأنّ الذي صار بالأمس ويصير اليومَ لا يكفي؛ أو كأنّ الأفضل أن تبقى أوطانُنا محتلّة، والشركاتُ الداعمةُ للعدوّ ترْتع في خيراتنا؛ أو كأنّ ما نُثِرَ علينا من بانتوستانات هزيلة مقطّعة رثّة جديرٌ بأن نُوقفَ ــ بل أن نَقْمعَ ــ المقاومةَ من أجله.

ولم نَفْطنْ إلى أنّ أحدًا ليس مغرمًا في الاستشهاد في حدّ ذاته، بمن في ذلك الفقيرُ المعدَمُ الذي ليس له ما يَفْقده سوى قيوده وأغلاله (بالإذن من المعلِّمَيْن ماركس وأنجلز). فلتُعْطه الدولُ «الحرّة» مروحيات أپاتشي وطائرات ف ــ ١٦، كما قال صديقي اللدود إبراهيم علّوش، وأنا ضامنٌ لكم بأنّه لن يفجّر نفسَه... إلاّ يأسًا وقهرًا لما صِرْنا إليه نحن المثقفين المتفذلكين!

المقاومة العراقية يا حبيبي ليست لإعادة صدّام... إلاّ إذا أَسْهمنا نحن العربَ في ذلك: بالابتعاد عنها، ورمْيها بالفئوية والصدّامية، وتبريرِ وجودِ المحتلّ بالهجوم على مساوئ النظام السابق وحده. والمقاومة الفلسطينية ليست لسفكِ الدِّماء، ولا لتطويل اللِّحى، ولا لحَجْرِ النساء في بيوتهنّ... إلاّ إذا تَرَكْنا الساحة لغيرنا من المناضلين، وأصررْنا على التخلّي عن حقوقنا التاريخية غير القابلة للنقض، وعلى رأسها حقُّ العودة والقدس، وانكفأْنا إلى حلولٍ «سلْمية» لا تُرْضي إلاّ بعضَ المنتفعين، واتّخذنا من النضال «المدنيّ» حجّةً للقعود عن النضال العسكريّ والسياسيّ، وصارت حريتُنا الفردية بديلاً ــ لا رديفًا ــ لتحرُّرنا الوطنيّ.

المقاومة المسلّحة، في كلّ مكان، فيها عيوبٌ وأخطاءٌ وخطايا. وقد عشْنا في لبنان وشُفْنا كيف تصبح البندقيةُ والعبوةُ الناسفة والسيارةُ المفخّخة أداةً للتشبيح والبهورة والشرشحة والزعبرة وفرضِ الخوّات. لكنّ نقدَ السلاح نقدًا موضوعيًا شيء، وشَتْمَ العمليات العسكرية والاستشهادية شيءٌ آخر. نقدُ السلاح (كيفية إيجاده وتصنيعه وتطويره، وزمن استعمال أيّ عنصر فيه...) جزءٌ من سلاح النقد. وأمّا تشويه المقاومة المسلّحة (في العراق أو في فلسطين) والتشهيرُ بها فضربةٌ نوجِّهها إلى مُجْملِ عمليةِ التحرير، إذ لا تحرير إلاّ باستخدام وسائل المقاومة كافةً ــ وإنْ بمقاديرَ تختلف بين محطةٍ تاريخيةٍ وأخرى.

أم تُرانا الآن سنبدأ بتنظيرٍ جديدٍ يقول إنّ الاحتلال لا يُمْكن أن يُزال بالمقاومة؟!

سماح إدريس
بيروت